غرائب من وليسمبورغ

من ربع قرن جاءتني سيدة أميركية، وقد كنت في وزارة المعارف فقالت لي: إني أعني بالصوفية وقد زرت الشيخ بدر الدين الحسني وهو مثل الملائكة، ثم قالت لي: إن لي ولعاً بالخط الكوفي، فقلت لها: هل تستطيعين أن تكتبي لي شيئاً، بخطك الكوفي لأحفظه ذكرى، فأخرجت قلماً وأعطيتها ورقاً وكتبت سطرين في سرعة غريبة وأعطتني الورقة وانصرفت، فاحتفظت بها واتفق أن زارني مدير المتحف الأمير جعفر الحسني فأخرجت الورقة من الدرج وسألته: ما هذا النوع من الخطوط يا أمير، فأعتقد لأول وهلة أن الأمر جد وأخذ يدقق في الخط ثم تبين له الخلط فقال: هذا ما كنا نسميه في صغرنا: خرابيش الجاج.

ومن أسبوع طلبت إلي السيدة التي أسكن دارها في وليسمبورغ أن أزور سيدة أميركية قريبة من مدرسة ابنها فوافقتها على ذلك وتوجهنا نحو دار هذه السيدة والدور في هذه المدينة الشعرية مفتوحة أبوابها في الليل والنهار سواء أكان أهلها فيها أم لم يكونوا، وليس للدور أجراس وإنما لها ما نسميه في دمشق: سقاطات، ويدخل الزائر عادة دون أن يدق الباب فهو ينادي صاحبة الدار

فإذا أجابت دخل و هكذا فعلنا، فاستقبلتنا السيدة ووقعت عيني على صورة في الحائط وهي صورة شيخ جليل القدر في عمامته البيضاء وجبته السوداء ولحيته فلم أشأ أن أسأل عن هذه الصورة، ولما استقر بنا المقام اندفعت السيدة في الكلام وقالت: إني على المذهب البهائي، وهذه صورة صاحب مذهبنا معلقة على الجدار، وأنا أذهب من سنة إلى سنة إلى حيفا وأزور مقامه، وددت لو أجد من يعلمني الفارسية، فسألتها بعض السيدات عن هذا المذهب فقالت: إنا نؤمن بالنبوات ومن جملتها نبوة سيدنا محمد فقلت لها: الحمد لله الذي أدخل في الإسلام سيدة جديدة تؤمن بنبوة نبينا، ولماذا لا تنشرين هذا المذهب في بلدك، فقالت لست خطيبة، فقلت لها: خاطبي الناس كما تخاطبين زوارك الآن، فأنا من هذه الساعة أوشكت أن أكون على مذهبك!

ومن أسبوعين أرسلت إليَّ الجريدة التي تصدر في وليسمبورغ وهي «ديلي برس» محرِّرَها فتعرف إليَّ وسألني شيئاً عن حياتي وعن رأيي في جامعات أميركة ثم كتب مقالاً في ترجمة حياتي ونشره في الجريدة ضمنه انتقادي لبعض أساليب التدريس في الجامعات الأميركية، وقد جاءني بعد ذلك بيوم فشكرت له فضله فقال: إن لي حديثاً آخر معك، فهل تتكرم بزيارتي في المكتب؟ فذهبت معه إلى المكتب فقال: إني أُعنى ببعض أمور الشرق وهو شاب يوناني الأصل ولكنه أميركي، وقد رأيته مرات في مكتبة جامعة

وليسمبورغ يبحث عن بعض الكتب، ورأيته يطالع رواية من روايات دوستويفسكي وهي: الجريمة والعقاب.

أخذ هذا الشاب يسألني في المكتب عن الدراويش المولوية، فذكرت له شيئاً قليلاً عن الصوفية في أول أمرها، ثم كيف تطورت في آخر الأمر حتى دخلها التدجيل، وقلت له: يا أخي إنك لا تجد في بلادنا الآن من يهتم بأمر الدراويش ولا تجد من يفرق بين السُّنة والشيعة، وهذه نفحة كانت في القديم لأسباب لا مجال لذكرها. أما اليوم فإن الناس يهتمون بأمور طارئة تشغلهم أكثر من المولوية، إنهم يعنون بأمور استقلالهم واقتصادهم وما شابه ذلك، ولو سألت غيري لأجابك الجواب نفسه، ويظهر على هذا الشاب أثر الذوق فاعتذر أرق اعتذار ثم أغلق هذا الباب.

وأذكر مرة في مؤتمر برنستون الذي عقد سنة ١٩٥٢ وحضره بعض علماء الشرق أن كنا نبحث عن شيء في شرع الإسلام، فنهض أحد الأساتذة وفتح باب السنة والشيعة فرد عليه الدكتور جواد علي وهو من العراق وقال له: لا فرق بين السُّنة والشيعة إلا في أمور بسيطة جداً ثم أغلق هذا الباب.

هذه الأمور القليلة تدلنا على الزاوية التي ينظر منها بعض الأميركان إلى بلادنا، فهذه البلاد في نظر طائفة منهم بلاد الخط الكوفي والبهائية والدراويش المولوية والسُّنة والشيعة وغير ذلك مما أوشك أن لا يكون له أثر، أما الأمور التي تشغل بلاد العرب في

حاضرها، أمور السياسية والاقتصاد وغيرها فإن أكثر الأميركان لا يكادون يعرفون عنها شيئاً، وقد أخذت بعض الجامعات تعنى بدراسة تاريخنا ولغتنا ولكن لست أدري هل انتخبت هذه الجامعات أساتذة مخلصين مجردين يتخلون في تدريسهم عن كل نزعة دينية أو سياسية، فإني ما أزال أذكر أن في بعض الجامعات أساتذة من اليهود، يدرسون هذا التاريخ، وقد دفع إلي مدير المخطوطات في مكتبة جامعة وليسمبورغ كتاباً لأقرأه عنوانه: الميراث العربي، تضافر على تأليفه تسعة أساتذة، يبحث هذا الكتاب عن علوم العرب والجاهلية ومصادر الإسلام وشعر العرب والغزالي والحروب الصليبية والجهاد والفن الإسلامي وغير ذلك، قرأت قسماً كبيراً من هذا الكتاب ولما وصلت إلى فصل مصادر الإسلام، رأيت أن المؤلف انصرف إلى المقابلة بين آيات القرآن وبين ما ورد في معانيها في التوراة والإنجيل بدلاً من أن ينصرف إلى تعريف الأميركان ما هو الإسلام وما هي فضائله.

الشجرة المثمرة!!
من واشنطن

أَدَّبَ سفير سورية في واشنطن الدكتور فريد زين الدين مأدبة دعا إليها طائفة من رجال السياسة والجالية وكبار الموظفين السوريين الموفدين بمهام رسمية، وكنت في جملة من دعي إلى هذه المأدبة الأنيسة. كان السفير يقدمني ويقول: عميد كلية الآداب وعضو المجمع العلمي وكذا... وكذا.. فكنت أقول لإخواني السوريين إن هذه البضاعة كاسدة في أميركة فلو قال السفير: إنّ فلاناً صاحب معمل صابون أو صاحب منسج لنفعني بهذا التقديم، فقد يجوز أن أدعى في اليوم الثاني إلى زيارة المعامل الأميركية، وقد يجوز أن يهدي إليّ أصحاب هذه المعامل سيارة أو غيرها أملاً أن ينشئوا صلات اقتصادية بيني وبينهم أمّا أن يقول لهم: إن فلاناً أستاذ أو إنه من رجال الأدب فهذا قول يمرُّ مرَّ السحاب...

حقاً إن الجماعة انصرفوا في أميركة إلى الآلة انصرافاً غريباً، ففي الفندق الذي أسكنه شروع في بنيان حديث فإن صاحب الفندق أراد أن يقيم مقام الحديقة بناء يتسع به الفندق وقد أخذت الألات

تعمل عملها فكنت أرى الأميركان وأكثرهم شيوخ يتركون مقاعدهم ويتفرجون من شباك البهو على الآلات وأعمالها مسرورين بهذه الفرجة على حين كان صدري يضيق بضجة الآلات، فالجماعة غلبت على حياتهم الآلة وما تؤدي إليه من الإنتاج فقيمة المرء في بلادهم ما ينتج مالهم وللشعر، مالهم وللأدب، وقد كنت أطالع كتاباً فمر بي مقال عنوانه وحده يدلنا على رأيهم في الحياة وهذا هو العنوان: «الرجل شبه شجرة مثمرة» وفي المقال مقطع يوضح ميلهم إلى الإنتاج فإن صاحبه يرى أن أشد الأمور التي يجب إتمامها في هذا العام إنما هما أمران: الحصول على الثروة بمجهود شريف ومعرفة الانتفاع بها بطريقة شريفة، وفي نظر هذا الكاتب أن الشجرة المثمرة إذا عجزت عن حمل ثمرها سقطت فماتت وكذلك الرجل إذا عجز عن العمل.

هذه الفلسفة تكاد تكون فلسفة كثير من الأميركان لأنهم يرون أن عظمتهم في العالم قائمة على الإنتاج، ولكن ليس معنى هذا أن الأميركان كلهم على هذا الرأي، فقد رأيت كاتباً من الكتاب يقول إن أكبر تسلية إنما هي الطبيعة فَهَمُّهُ أن يذهب إلى الغابات ومعه سلاحه وكلبه أو صديقه فيخفى في الطبيعة فلا يسمع الهاتف ولا يتسلم البريد ويعيش في الطبيعة ويشعر بالله تعالى من حوله.

لا يستطيع الإنسان أن يحكم على الأميركان حكماً واحداً قاطعاً فهم يختلفون على اختلاف بيئاتهم، ففي بلادهم صحارى تشبه

صحارى إفريقية وجبال جرد تشبه جبال سرغايا وحلبون، وجبال شجيرة تشبه جبال العلويين ولبنان، وسهول منبسطة وأنهار وبحيرات وغابات، وقد اختلفت الأخلاق والأمزجة كما اختلفت البيئات، فأهل الشرق مثل نيويورك وغيرها فيهم بعض الوحشية والانقباض، وأهل الغرب مثل سان فرنسيسكو وغيرها من بلاد كاليفورنية فيهم بعض الأنس والانبساط، وفي الشمال أمزجة تكاد تكون إنكليزية، وفي الجنوب أمزجة تكاد تكون إسبانية لذلك لا يمكن أن يكون الحكم واحداً.

وكذلك الحياة الاجتماعية في أميركة، فبعض الأسر لا تكاد تعرف لذة اجتماع الأب والأم والولد في المساء، حول مائدة البيت، وبعض الأسر تعيش أهنأ عيشة فلا أنسى أسرة دعتني إلى زيارتها من أسبوع في مدينة وليسمبورغ في ولاية فرجينيا فنمت في البيت ولست أعرف في حياتي بيتاً أحسن نظاماً ولا زوجة أحسن ترتيباً ولا زوجاً أحسن إخلاصاً ولا طفلة أحسن تربية.

وكذلك رجال الفكر فهم غير رجال المعامل، ونحن نقول فيهم إنهم يعيشون على سطوح الثقافة لا على أعماقها، والصحيح أنهم يأخذون من كل نوع من أنواع الثقافة لبه وخلاصته ولكنهم لا يعنون بالأجزاء عناية الأمم اللاتينية.

والخلاصة أن الإنسان يحار في هذه القارة، في عظمتها من جهة وفي مناقضاتها من جهة ثانية، فهو يشفق من ناحية على ظلمة

الحيـاة الميكانيكيـة ويعجـب مـن ناحيـة ببسـاطة بعـض الأسـر وحياتهـا الاجتماعيـة.

وعلى كل حـال إن قيمـة صـاحب معمـل مـن المعـامل تختلـف عـن قيمـة صـاحب ديـوان مـن الدواويـن، فقيمـة المـرء في أميركـة علـى مقـدار إنتاجـه.

سحبة ريشة

في أساطير الصين أن أحد ملوكها دعا رسامه وسأله أن يرسم سرطاناً، وهو ما نسميه في عاميتنا: السلطعان.

قال الرسام للملك: أمهلني عشرين سنة! فقال الملك: عشرون سنة لرسم سرطان!. لا بأس، أمهلتك!

في خلال العشرين السنة كان الرسام يجول كل مجال، ويشغل نظره ويعمل فكره ويحسب ويتأمل، ولما أوشكت المهلة أن تنتهي مثل بين يدي الملك، فسأله عن الصورة، فلم تكن الصورة جاهزة فقال الرسام: أعطوني كبّة حرير وريشة، فأعطوه.

بحسبة ريشة ضبطت ضبطاً معجزاً خلق الرسام سرطانه وقد أفرغ في رسمه تجربة العشرين السنة ومات!

لا أعرف قصة تصور الصبر الطويل في العبقرية مثل هذه القصة، أنا نعيش في عصر لم يبق فيه لطول البال معنى من المعاني، كنا قبل ستين سنه نعيش في دمشق على ما نسميه «الضويلو» وهو عبارة عن قنديل صغير فيه فتيلة مغموسة في الزيت نشعلها فتضيء، وكنا نحج على ظهور الإبل فيستغرق حجنا ثلاثة أشهر، أما اليوم

فإنا نعيش على الكهرباء، فإذا انقطعت الكهرباء عنا وكنا في سهرة أو مجلس أو مقهى ضجرنا واعترضنا وغضبنا، ثم إنا نعيش في عصر الطائرة وقد تبلغ بنا الطائرة سماء جدة في بضع ساعات، فإذا عطلت في المطار بضع دقائق واستلزم الأمر إصلاحها لَعَنّاً وشتمنا. لماذا هذا الضيق كله؟ لأن العصر الذي نعيش فيه إنما هو عصر السرعة، يدور فيه الإنسان حول الأرض ثمانين دورة في يومين أو ثلاثة أيام، فإن عقولنا أصبحت عاجزة عن إدراك أسرار العلم وكأننا أصبحنا في حاجة إلى أن يخلق الله لنا عقولاً جديدة حتى نستطيع أن ندرك بها ما كشفه العلم من أسرار الفضاء، حقاً إنا لا نحتمل التطويل، فقد ضاق خلقنا، وضاق صبرنا، فنحن نريد كل شيء في أسرع وقت.

ولكن إذا أمكنا أن نتحمل هذه السرعة في أمور المادة فلا يمكننا أن نحتملها في أمور الفن والأدب، فقد قيل إن العبقرية إنما هي عبارة عن صبر طويل، فلا يستطيع رجل من رجال الفن والأدب أن يخلق أثراً رائعاً بين عشية وضحاها، فلا بد من الصبر، على نحو رسام الملك، لا بد للأديب، سواء أكان شاعراً أم كان كاتباً، من أن يجول في أدبنا كل مجال، وأن يطيل نظره في هذا الأدب، وأن يعمل فكره في الذي أورثنا إياه قدماء شعرائنا، وكتابنا من نتائج خواطرهم وثمرات قرائحهم، والخلاصة لا بد له من التمهل في روض البيان عشرين سنة أو أقل أو أكثر، حتى إذا أمسك بالقلم

بيده استطاع أن يسحب السحبات المعجزة!

هذا كله لم نفهمه حتى اليوم، فقد طرحنا ميراثنا الأدبي وأخذنا نردد هذه النغمة المزعجة، إن هذا الميراث لا يناسب العصر الذي نعيش فيه، وشرعنا نخترع أدباً لا هو عربي ولا هو صيني، وقد وقع مثل هذا الاختراع في أدب إيطالية من سنين، فقال أحد كتابها: إني لا أقرأ ما يكتبه بعض الكتاب في يومنا هذا إلا شعرت بأن المعدة تنقلب علي..

ما أظن أن شاعراً من كبار الشعراء أو كاتباً من بلغاء الكتاب ارتفع إلى منزلة رفيعة دون كثير من الجهد، وإذا كان لا بد من ضرب الأمثال فإني أضرب مثلاً «فلوبر» صاحب رواية: مدام بوفاري.. لقد كابد «فلوبر» ما كابد مما كان يسميه: آلام الأسلوب، فكان يقضي الساعات الطويلة في تقليب النظر في عبارة من عباراته ولا يعتمد على هذه العبارة ولا يقرها إلا بعد أن يقرأها بصوت عال، وبعد أن يتوثق من حسن التنسيق بين أجزائها، ولو أحببت أن أذكر غير «فلوبر» من الذين كلفتهم عبقريتهم جهداً جاهداً لذكرت.

فإذا كان وقتنا ضيقاً وخلقنا أضيق فمعنى هذا أن العبقرية لا تليق بنا ولا نليق بها، فإذا كنا نريد أن نكون من أبنائها فليكن صبرنا طويلاً حتى تكون آثارنا معجزة بعد:

سحبة ريشة!

مقاييس الحياة

أجلس في شدة هذا الشتاء، وفي وحشة لياليه السود إلى طائفة من كتبي القديمة بعد أن انقطعت عني بسبب هذه الحرب كتب الإفرنجة ومجلاتهم وجرائدهم فأنبش الموتى الخالدين في تضاعيف هذه الكتب، واستمع إلى أحاديث عبقريين في الشعر والسياسة والأدب، واستطلع آراءهم في الحياة، وما أشد اختلاف هذه الآراء!! ما أعظم تفاوت المقاييس التي يقيسون بها الحياة. وأي لذة أبلغ من معرفة رأي كل واحد منهم في هذا الباب؟

أربعة مجالس نثر فيها أصحابها آراءهم الخاصة في النعيم والسرور واللذة: مجلس في الجاهلية، ومجلس في دولة بني أمية، ومجلس في دولة بني العباس، والرابع في الصحراوات!

فما هو السرور في نظر فريق من شعراء الجاهلية؟ أما طرفة فما الحياة عنده إلا مطعم هنيء ومشرب روي، وملبس دفيء، ومركب وطيء. وأما امرؤ القيس فلا يتم سروره إلا ببيضاء رعبوبة، بالطيب مشبوبة، باللحم مكبوبة. واما أعشى بكر فلا يكمل حبوره إلا بصهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية!

فانظر إلى رأي هؤلاء الشعراء في الحياة، انظر إلى الآفاق التي يسرحون فيها ويمرحون، وأنت حرٌّ في أن تغبطهم عليها أو تلومهم.

ولكن انحدر عن هذا الأفق قليلاً، وخالط بني أمية في دولتهم. أفتعلم أين كان يجد زياد نعيمه؟ اسمع حديثه وقد سأل ذات يوم أهل المجلس: أي الناس أنعم؟ قالوا: معاوية قال: فأين ما يلقى من الناس؟ قالوا: أنت. قال: فأين ما ألقى من الثغور والخراج؟ قالوا: فمن؟ قال: شاب له سداد من عيش، وامرأة قد رضيها ورضيته، لا يعرفنا ولا نعرفه، فإن عرفنا وعرفناه أفسدنا عليه دينه ودنياه!

فانظر إلى ضجر رجل مثل زياد من السلطان، وهو داهية العرب، الصالح لكل صغيرة وكبيرة، الذي كان يقول لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفت من أخذه. أفكنت تظن أن رجلاً مثل زياد يمل من السلطان، أم أن رجلاً مثل معاوية تدخل عليه السآمة من الناس وهو الذي كان يقول: نحن الزمان، من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتَّضع!

وإذا تركت زياداً وما يلقاه من الثغور والخراج، وجئت بني العباس في دولتهم، وسألت أبا مسلم صاحب الدعوة عن السرور قال لك: ركوب الهمالجة وقتل الجبابرة. واللذة عنده إقبال الزمان وعز السلطان.

ثم غادر هذه الدولة وما نعمت به في قصور سقوفها من ذهب،

وحيطانها من رخام، واضرب في صحراوات العرب، في هذه الصحراوات التي لا تجد فيها إلا خشونة العيش ووحدة الحياة، فلا تطلع فيها الشمس على منظر جديد، ولا تغرب فيها من منظر جديد، واسأل أعرابها عن السرور. واحد يقول لك: لُبس البالي في الصيف، والجديد في الشتاء، وواحد يقول لك: ماء حار في الشتاء وبارد في الصيف!

فانظر إلى هذا الزهد في الحياة، يقتلهم الصيف بشدة حره، فلا يشتهون فيه إلا الماء البارد، ويقتلهم الشتاء بشدة برده فلا يتمنون فيه إلا الماء الحار!

ولكن ما الذي يستخرجه الإنسان من هذه النظرات المختلفة في الحياة عامة وفي السرور والنعيم واللذة خاصة؟ لا شك في أن الأمور في هذه الدنيا نسبية، فما يسوءنا قد يسر غيرنا، وما يحزن غيرنا قد يفرحنا، فكل واحد منا ينظر إلى الحياة من وجه خاص، هذا ينظر إليها من وجه يظنه سيئاً، فيغمره الهم والحزن. وأكثر آلامنا التي نعانيها إنما هي صادرة عن هذه النظرات المختلفة في الحياة حسنة، وبعضنا يراها سيئة، و تجمع بين الحسن والقبيح على السواء، إنها تؤلف بين الأحزان والأفراح، فمرة يغلب الحزن على الفرح، ومرة يغلب الفرح على الحزن، وهما يتعاقبان في هذه الحياة، على نحو ما يقع في يوم غائم ساعة، وصحو ساعة، فبينما الغيم في السَّماء، إذ تطلع الشمس فتشتته.

ولقد أدرك هذا الأمر «أناتول فرانس» فقال:

«إذا قال الناس: الحياة حسنة، وإذا قالوا: الحياة سيئة، فإنهم يقولون شيئاً لا معنى له، فيجب علينا أن نقول: إن الحياة إنما هي حسنة وسيئة معاً، لأننا لا نتصور فكرة الحَسَن والقبيح إلا بالحياة وحدها. والحق أن الحياة لذيذة، كريهة، فتانة، رهيبة، حلوة مرة، إنها كل شيء، ومثلها كمثل ثوب ألوانه شتى، واحد يرى هذه الألوان حمراً وواحد يراها زرقاً، واثنان يريانها كما هي ما دامت ألوانها حمراً وزرقاً، وما دامت هذه الحياة تجمع الألوان كلها، وهذا ما يحملنا على الاتفاق، هذا ما يحملنا على الإصلاح بين الفلاسفة الذين يتناحرون فيما بينهم، ولكننا جبلنا على صورة نريد معها أن نجبر غيرنا على أن يشعر وأن يفكر على نحو شعورنا وتفكيرنا، إننا لا نسمح لجارنا بأن يكون جذلاً إذا كنا محزونين.

نخطئ في أكثر الأوقات فنحكم على الأمور بالقياس إلينا، لا بالقياس إلى الذين صدرت عنهم هذه الأمور، فيختلف حكمنا لاختلاف الآراء، فلكل واحد منا رأي في هذه الحياة على قدر مزاجه وتربيته وبيئته وتفكيره، وقليلاً ما نجمع على رأي واحد في الكرم والبخل مثلاً أو في الجاه والخمول، أو في الحب، أو في الجمال، أو في أي مظهر من مظاهر الحياة، فقد يجود المرء ويكون جوده خطرات من وساوسه، ويبخل ويكون بخله علة من علل نفسه، فما يكون راحة لنا قد يكون تعباً لغيرنا. هذا زياد،

ومنزلته في بني أمية على ما علمت، فانظر كيف كان، تأتيه ساعة فيتعب فيها ذهنه من الثغور والخراج، من مشاغل الدولة كلها، فيتمنى أبسط عيشة في هذه الدنيا ليجد فيها راحته. وما أظن أحداً من الناس في زمنه كان لا يتمنى جاهاً مثل جاهه، وعظمة مثل عظمته، وسلطاناً مثل سلطانه!

وهذه «كليوباتره» كانوا يقولون فيها: إنها صغيرة القامة، وإنها لم تكن جميلة. وربما كان عصرها أجمل منها، ولكنها كان لها حديث إنما هو السحر الحلال، وكان لكلامها نغمة لها رنات مختلفة تذهب بالقلوب كل مذهب، وكانوا يقولون: إن لها أنفاً كبيراً حتى قال «باسكال»: لو كان أنف «كليوباتره» أصغر لقلب وجه العالم. غير أن الوجه الذي أنسى قيصر ملك الدنيا كما قال «أناتول فرانس» لم يشوهه أنف قبيح!

فانظر كيف كان قبح «كليوباتره» في نظر بعض الناس، حسناً في نظر قيصر، ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الحقيقة المطلقة في هذه الدنيا لا أثر لها. وإذا نزلت الحكمة على أحد بعد الأنبياء فقد نزلت على الشعراء، فاسمع ما قاله أبو الطيب المتنبي:

راعتك رائعةُ البياض بمفرقي ولو أنها الأولى لراع الأسحم

فقد اعتاد الناس أن يروا الحسن في الشعر الأسود، والقبح في الشعر الأبيض ولو تعودوا أن يروا المحاسن في الشعرة البيضاء

والمساوئ في الشعرة السوداء ما كان لاشتعال الرأس الأبيض شيباً أثر سيّئ في العيون.

أجل، لا حقيقة مطلقة في هذه الدنيا فكل واحد منا يجعل للأشياء الصفات التي تناسبه، كل واحد ينظر إلى هذه الأشياء من الوجه الذي يحبه، فالحياة ليس لها صفة صحيحة، ونحن الذين نجعل لها الصفات التي نريدها، فالعاقل من يكون وجهها في نظره أبيض ناصعاً، فإنها أحقر من أن تكون سبباً في همنا وتناحرنا.

المضحك المبكي
في دنيا الأدب

قبل أن أنعم بمطالعة فصول الأستاذ ظافر القاسمي في اللغة والأدب والنقد والتاريخ والاجتماع، كنت أطالع طائفة من الأدب الفرنسي، ولقد مررت في إحدى المجلات القديمة على فصل من نقد الكتب، يقول صاحب هذا الفصل في فاتحة كلامه:

«ليس الرواج في هذا العصر لكتب القصص وفي هذا الأمر ما يؤسف، فإن القصة الجديرة بهذا الاسم تشتمل في تضاعيفها على مادة يُشْتم عليها مؤلف طويل، ففي سطور تروي لنا القصة كل ما ترويه لنا الرواية في خمسين فصلاً، فالقصة واضحة، خفيفة، فبدلاً من أن تضجرنا بتطويلاتها على نحو الرواية. يلزمها أن تترك لنا «ذوق القيلل» الذي يتطلبه «موباسان».

لست أدري هل أستطيع أن أرى في المقالات، ما يراه هذا الناقد في القص، على تباعد ما بين القصة والمقالة. هل أستطيع أن أقول إن المقالة الجديرة بهذا الاسم تحتوي في أضعافها على أفكار تحتوي عليها كتابات مطوّلة؟ فمن أبرز خصائصها الخفة، فبدلاً من

أن تزعجنا بإطناب ممل وإسهاب مضجر، إنها تلخص لنا أفكاراً مديدة، فنرى في قلة أسطرها مالا نراه في كثرة سطور غيرها من الكتابات المطولة، وكيف كان الأمر إني من الذين يميلون إلى فن المقال.

تمثل لي هذا الرأي وأنا عاكف على قراءة ما عقده الأستاذ ظافر القاسم من الفصول التي أشرت إليها. فقد وجدت في قليل صفحاتها مالا أجده في كثير الصفحات التي يتبسط فيها أهلها، ولذلك رجوت أن أتولى تقديمها، ولكن صاحبها قال لي: على شرط واحد، أن لا تختصني بثناء. لست أفهم معنى هذا الشرط! كيف يتولى كاتب من الكتاب تقديم كتاب بدون أن يختص صاحبه بثناء إذا كان يستحق هذا الثناء، مهمة المقدمة أن يُعِّرف كاتبها بما يتضمنه الكتاب، أن يمهد للقارئ سبيلاً إلى الوقوف على خصائص هذا الكتاب، مهمة المقدمة أن يذكر صاحبها فيها ما أبقته في نفسه قراءة الكتاب من مختلف الآثار. فأنا لا أنقد هذه الفصول التي قرأتها، وإنما أعرب عن آثارها في خاطري، فإذا لزم الثناء أثنيت ولا حرج إن شاء الله. أما القارئ فهو حُر في نقدي ونقد الكتاب بعد مطالعته، فليس لنا سلطان على فهمه وذوقه، فهو وحده ولي هذا السلطان.

وعلى ما به لا أقيد نفسي في هذه المقدمة في شرط الأستاذ صاحب الفصول، وإنما أجري فيها على سجية النفس، فأدون ما

عنَّ لي من الرأي وأنا أمر على فصوله. وأول ما شهدته أني أسرح في آفاق تناسب ذوقي، وما هذه الآفاق إلا آفاق اللغة والأدب والنقد والتاريخ والاجتماع، فمن محاسن الاتفاق أن يتقارب ذوقي وذوق الأستاذ القاسمي في هذه الموضوعات الجليلة. إنا نعيش في عصر كاد يفسد فيه كل شيء، إنا نعيش في عصر كاد يفسد فيه ذوق اللغة والأدب والنقد، وإذا فسد الذوق في هذه الأمور المقدسة فلست أدري ماذا يبقى لنا! إذا مسخنا لغتنا وشوهنا أدبنا وأخضعنا نقدنا لأهوائنا المعوجة فماذا يكون مصيرنا؟ ماذا يكون هذا المصير ونحن نتغنى في كل طرفة عين بالقومية؟ فمن المؤلم أن نتغنى بها وأن نقضي في الوقت نفسه على ملاكها ونظامها.

كيف يمكنني أن أرغب عن الثناء على الأستاذ ظافر القاسمي في هذه المقدمة وهو يعالج من دقيق الموضوعات ما يقوي روح القومية، أي روح اللغة والأدب، كيف يمكنني أن أزهد في الثناء عليه وقد أشرب قلبه حب أبلغ كتاب، وأعني به القرآن الكريم؟ ولم يقتصر على هذا الحب وإنما ذهب إلى إمام من أئمة النهضة الحديثة، وأريد به الشيخ ناصيف اليازجي، فنبش ما اقتبسه من القرآن في مقامات: مجمع البحرين، ودل على حسن صورها، وابتداع تراكيبها، وإحكام سبلها، وفتنة أسلوبها.

إذا أنا أشرت إلى هذا الأمر اشارة يسيرة فما قصدت إلا أن يدرك القارئ الكريم وهو يقلب النظر في فصول الأستاذ القاسمي شأن هذا الميدان الذي جال فيه.

ولم يقتصر على ذكر ما اقتبسه الشيخ اليازجي من القرآن وإنما تتبعه في أمثاله في مجمع البحرين، فعقد فصلاً في الأمثال ومنزلتها واستشهد في هذا الباب بكلام فئة من الأئمة على الأمثال. والحقيقة أن المثل في هذه الأمة إنما هو ترجمان تفكيرها ومزاجها وثقافتها، فهو يدل على مبلغ هذا التفكير وهذا المزاج وهذه الثقافة.

ولقد أراني بعد هذا كله مضطراً إلى الدلالة على بعض الفصول حتى ندرك شأن ذوق صاحبها في اللغة والأدب والنقد: من هذه الفصول فصل في بعض تصانيف أبي حيَّان التوحيديّ: الصداقة والصديق. وليس المهم الكلام على الصداقة والصديق في هذا المقام، فإن القارئ يتسع وقته للرجوع إلى هذا الأثر.

وإنما المهم التنبيه على اهتمام الأستاذ ظافر القاسمي بكاتب من طبقة أبي حيان، في وقت كدنا ننسى فيه أبا حيان، وبلاغته وروعه تصاويره، فانصرفنا في معظم كتاباتنا عن نمط هذه البلاغة، وهذه الروعة إلى نمط من السخافة عجيب، حتى كاد أكثر ما نمر عليه من الكتابات لا نفهم منه شيئاً، فلا هو عربي، ولا هو أفرنجي، لا هو شرقي، ولا هو غربي. إن فضل الأستاذ القاسمي إنما هو في تذكيرنا بأبي حيان، في التنويه برجل من رجال العبقرية في أدبنا، حتى نستضيء بضيائه في عصر عمت الظلمات فيه بياننا، وحتى نسترشد بتصاويره، في زمن شوهنا فيه كل تصوير.

ولم تكن عناية صاحب الفصول بابن المقفع أقل من عنايته بأبي حيان.

ومن الذي استقام بيانه في بدء نهضتنا، وسهل كلامه، بدون أن يملأ ذهنه من ابن المقفع؟ أفلا يحق لنا أن نثني على الأستاذ القاسمي لتذكيرنا ببلغائنا المتقدمين حتى نغرف من بحرهم، ونتسحب على أذيالهم؟

إني أنتقل من هذا المجال الذي جال فيه الأستاذ القاسمي، مجال اللغة والأدب، فلا أطيل المكث فيه لأن غايتي الإعتراف بأمر واحد: حسب فصوله في الأدب واللغة أن تولد في الذهن ميلاً إلى اللغة والأدب، وأ تحمل هذا الذهن على الاستئناس بأئمة هذين البابين، حتى تكون آثارهم ملء خواطرنا، ونصب عيوننا، نقوِّم بها أذواقنا، ونثقف شعورنا، ونأخذ عنها بلاغتنا، فهي كنزنا الذي لا يفنى، وهي مجدنا في ماضينا وحاضرنا وآتينا.

ولكني أراني قد أوشكت أن أفرغ من هذه المقدمة بدون أن أمضي أقول في الذي بعثه في نفسي من قدرة صاحب الفصول على أمور النقد، فليس من الإنصاف في شيء أن أغفل عن الإشارة إلى هذه القدرة. لقد تصدى الأستاذ القاسمي في فصوله لنقد طائفة من كتب الأدب، ولقد وجدت له من المهارة في النقد ما عظم نقده في عيني، فقد أوتي كثيراً من البراعة في الاهتداء إلى مواطن الحسن، فكانت تشترك في هذا الاهتداء ملكاته وحواسه، كان لا يغفل عن كل دقيق وجليل في آثار الكتب التي نقدها، وربما اهتدى إلى ما يخطر على بال أصحابها، وما هذا إلا لفرط حسه، ودقة نقده، وقوة فهمه، إنه يغوص على أسرار الكتاب فينبشها من مدافنها، ثم

يلقي عليها بعد استخراجها من هذه المدافن ضياء ساطعاً، حتى تكاد تبهر العيون، وتخطف الأبصار، ومن أوتي مثل هذه الخصائص في النقد كان جديراً بأن يكون إماماً من أئمته المبرزين في هذا العصر.

إني آسف الأسف كله على الاعتراف بأني بلغت خاتمة هذه المقدمة ولم أستطع أن أقول كل ما يهجس في صدري وأنا أطالع فصول الأستاذ ظافر القاسمي. ولست أشك في أن القارئ سيهتدي في مطاويها إلى كثير من المحاسن التي فاتتني، وسيكون إعجابه بفضل الأستاذ ظافر القاسمي في بعض روح اللغة والأدب والنقد أشد من إعجابي، وثناؤه على دقة نقده، وامتداد معرفته، أكثر من ثنائي. ولكني إذا طرحت القلم من يدي في هذه الخاتمة، فحسبي أن أطرحه بعد شعوري الشديد بأن صاحب الفصول قد متعنا المتاع الحسن، وأي فضل أعظم من هذا الفضل!

وجه لبنان

أَعيش من سنين في عزلةٍ تامّة، بعيداً عن كل شيء، بعيداً عن دمشق وضوضائها، بعيداً عن كل مشكلةٍ من مشكلات الحياة، فلا تجارة أَخشى الخسارة فيها، ولا دكاكين أَخاف أَن أُصادر عليها، ولا مصانع أَو معامل تذهب عني خيراتها، أعيش في قرية، على يساري جبل الثلج، وعلى يميني عِقاب لبنان، وأَمامي جبل الزبداني، من خلفه وادي الحرير ووادي القرن.

أمَّا الكتب التي أُطالعها في هذا الانقطاع عن العالم ففي مقدمتها القرآن الكريم والأَغاني وكتب الجاحظ ومؤلفات أَنا تول فرانس وأَشباه هذه الطبقة، ولا ريب في أن الذهن قد يصيبه بعد مطالعةٍ من هذا الشكل قليل من الجهد، فلا بدَّ له من مطالعة كتب سهلةٍ تصرف عنه بعض هذا العناء، والمجلَّة الوحيدة التي أطالعها هي «الجمهور» وقدة تكرَّم صاحبها باهدائها إِليَّ لأَنه عرف من إحدى مقالاتي أني من أَصدقاء والده المرحوم ميشال أبو شهلا.

فضل هذه المجلة عليَّ، في العيشة التي أَعيشها، فضل عظيم، فقد زهدت في قراءة الصحف بمجامعها، فلا أَعلم من أمور العالم إلا ما أَسمعها من أَنبائه بهذه الآلة التي سموها: «ترانز ستور» أَجل، إني

أُطالع الجمهور، ولا صبرلي على وصولها إليَّ، وأَعتقد أَن الذين يطالعونها يقدرونها حق قدرها، فقد نقلتني من عالمٍ إلى عالمٍ، نقلتني من العزلة إلى الاجتماع، ومن الوحشة إلى الأنس، ومن الكآبة إلى المرح، أمَّا مقالاتها في مجالات السياسة والتحقيق والفضاء وعلم هذا الفضاء فقد أقرأ هذا كله، وقد انتفع به فأَعلم منه ما أعلم، إنما الشأن كل الشأن في هذا العالم العجيب، في هذا الأفق الزاخر، في هذا الجوّ المرح، وما هذا العالم وهذا الأفق وهذا الجوّ إلاَّ لبنان، فلا تكاد تصل إليَّ «الجمهور» حتى أَتطلع إلى مجتمعات لبنان، فأرى مآدبه، وأَرى ملاهيه، وأَرى أَزياء نسائه الفاتنات، فكأني أَشم روائح المآكل، وكأَني أَنهل من المشارب، وكأَني أُشارك أَهل اللهو في لهوهم، وكأَني أمتع عيني من نساء لبنان وجمالهن وزينتهنّ وأقول في نفسي: ما هذا العالم العجيب، ما هذا الأفق الزاخر، ما هذا الجوّ المرح، إني لا أَرى إلاَّ ثغوراً تبتسم ووجوهاً تضحك، ولا أسمع إلاَّ النوادر على شفاه أَصحابها، هذه هي الدنيا التي يعيش فيها لبنان، وقد نتذاكر في بعض مجالس القرية، أَنا ولفيف من أصدقائي يصيفون فيها، لبنان وأموره، فيخوضون في حريته، ويشيرون إلى رفاهيته، ويفيضون في ثروته، ويقولون إنه أَصبح قبلة بلاد العرب، فهو في مأمنٍ من كل شيء، يأتونه من كل فجّ عميق، من نجد والحجاز والكويت وسورية والعراق، فيجدون فيه مالا يجدونه في غيره من بلاد العرب، وينعمون فيه بما لا ينعمون بمثله في آفاق ثانية، فيبتسمون مع

المبتسمين ويضحكون مع الضاحكين، ويسخرون مع الساخرين، ويلهون مع اللاهين، فتتجدّد حياتهم، ويتجدَّد شبابهم، ويتجدّد نشاطهم، فكأنما ضُرب بينهم وبين مشكلات الحياة ومشكلات العالم بلأسداد، فلا همَّ يساورهم، ولا ضجر يغالبهم، ولا كآبة تأكل أجسامهم وأرواحهم، وقد نجد في مجالسنا، على الرغم من هذا كله، من يشير إلى أزمات لبنان، أزمة في السياسة، أزمة في الاجتماع، أزمة في الاقتصاد، قد يكون هذا صحيحاً، ولكن الأصحَّ منه أن لبنان أقوى من هذه الأزمات كلها، فهو يغلب عليها، فيطمسها حتى لا يكاد يُحس بها أحد، ولا كاد يهتم بها أحد، وإذا أحس بها من أحسّ، أو إذا اهتمّ بها من اهتمَّ فإنه يذوب في المجتمع فلا يُرى له أثر، ويضيع صوته فلا يُسمع له رنين.

هنيئاً للبنان، هنيئاً لحريته، لرفاهيته لثروته، هنيئاً لابتساماته، لضحكاته، لنوادره، أمّا الغيوم السود التي تغشّي سماءه الصافة من وقت إلى وقتٍ فإنها لا تلبث أن يبدّدها ضياء الشمس في النهار ونور القمر في الليل، فلا يبقى منها إلاَّ وجه لبنان وحده، لا يبقى منها إلاَّ الحرية والرفاهية، إلاَّ الضحك والابتسام، إلاَّ النكتة والمرح!

الثور والحمار!

أعيش من خمسين سنة في قريةٍ تبعد ساعةً عن دمشق، وقد كنت أَصيف في هذه القرية أمَّا اليوم فإني أَصيف فيها وأشتو، المشاهد في الشتاء قليلة لأني أَقبع في الدار والثلج يحيط بها و بالجبال من كل جهةٍ، وأمّا في الصيف فالمشاهد كثيرة، من جملة هذه المشاهد مشهد لا أنساه، فقد كنت مرَّة على العين، أي في سوق القرية وإني لواقف في السوق إذ برجلٍ من عين حور وهي قرية قريبة من بلودان التي أَعيش فيها، ومع الرجل ثور أَسود فلمّا وصل إلى السوق لقيه رجل من بلودان فسأله عن الثور الذي معه، فقال له جئت به لأَبيعه، فاستوقفه البلوداني ودخل داره وأَخرج معه ثوراً أَسود ليقابل بين الثورين، فلمّا وقعت عين ثور البلوداني على أَخيه ثور الرجل العنحوري صوَّب نظره فيه وصعَّد ثلاث مراتٍ وأنا أراقب هذا التصويب والتصعيد ثم نتر رسنه من يد صاحبه وعاد إلى مكانه فقال البلوداني إلى العنحوري: اذهب يا أخي لا سبيل إلى التوفيق بين الثورين!

هذا مشهد شهدته بعيني، أمّا المشهد الثاني فقد روي لي ولم أَشهده، قيل لي إن أحد رؤساء الجامعة الأميركية في بيروت دُعي

مرّة إلى الغداء في قرية من قرى لبنان، ولا ريب في أن غداءً يهيئُ في لبنان لا يخلو من أكلة الكبّة، فأكل الرئيس حتى شبع، فألحّ عليه صاحب الدعوة في الزيادة من الأكل فسايره فأكل حتى أصابته تخمة، ولمّا خرج من الدار بعد الغداء رأى حماراً يشرب، من بركةٍ في القرية وقد شرب حتى رويَ وكفَّ عن الشرب، فجرّه صاحبه إلى الماء حتى يزيد في الشرب فامتنع الحمار، فقال رئيس الجامعة: الحمار أعقل مني، شرب وروي فامتنع عن الزيادة في الشرب وأنا أكلت وشبعت فلم أمتنع عن الزيادة في الأكل.

أروي هذين الأمرين كما وقعا دون زيادةٍ أو نقصان، فما الذي نستنتجه منهما، أمَّا ثور الرجل البلوداني فقد علم بالبديهة أو بأمر آخر أنه لا سبيل إلى الاتفاق مع أخيه ثور الرجل العنحوري، إمّا لتباينٍ في الطبائع وإمّا لتنافر في الخلقة وإمّا لأسباب ثانية نجهلها، فآثر الانسحاب من صاحبه والرجوع إلى مكانه هرباً من مشاكل قد تقع في الآتي إذا قرن بالثور العنحوري، فأصل الأمر في المصاحبة وفي وحدة الطبائع الانسجام فإذا لم يكن الانسجام وقع الخلاف ثم قضي على المصاحبة وعلى الوحدة، ولا شكّ في أن الثور البلوداني لم يهرب من أخيه خوفاً من الشغل والتعب وغير ذلك، فإنه يحرث عند صاحبه ويشتغل ويتعب ولكنه هرب لفقدان ما نسميه: الانسجام، أفلا نرى هذا الثور قد رزقه الله تعالى عقلاً راجحاً، فقد هداه طبعة إلى السلامة من المشاكل قبل الوقوع فيها،

ولكن هذا الثورة المسكين على الرغم من عقله الراجح لا نزال نظلمه ونحقّره ونحط من قدره دون أن ننظر إلى خدمته للإنسان من آلاف السنين، فكان يحرث الأرض فيأكل الإنسان من ثمرها وبقلها، ولولا هذا الحرْث لحرم أكل هذه الخيرات، وعلى الرغم من عقل الثور ومن خدمته للإنسان فإنا إذا غضبنا على واحدٍ منّا قلنا إنه مثل الثور، أي غليظ القلب، قليل الفهم، فهذا جزاء هذا الحيوان المظلوم.

لننتقل الآن إلى الحمار المسكين الذي رأى رئيس الجامعة الأميركية في بيروت أن هذا الحمار أَعقل منه، فقد شرب الحمار حتى روي وقنع بذلك، أفلا نرى أنه أَعقل من كثير من البشر، يأكلون فلا يشبعون، ويشربون فلا يرتوون، وفي مجال آخر من مجالات الحياة إذا تقلّد أَحدهم مقاليد منصب جليل أحبّ أن يتقلّده كل عمره، من المهد إلى اللّحد، وما يقال في هذا الأمر يقال في كل أمرٍ من أمور الحياة، يغنى الرجل فلا يشبع من غناه.

وكما ظلمت البشرية الثور العاقل فقد ظلمت الحمار المسكين، فلا يهفو أحد الناس هفوةً إلاَّ قالوا له: حمار، أي قليل الفهم، فما ذنب هذا الحيوان المسكين، إنه يحمل أثقال الإنسان، ويوطئ له ظهره للركوب، ومكافأة هذا كله عصا تنصبّ على ظهره من حين إلى آخر إذا أبطأ في السير.

أفلا يجدر بنا أن ننظر نظرة جديدة إلى الحيوان الذي خلقه الله

تعالى ليعين الإنسان، أفلا يجدر بنا أن نرى أن الثور يفهم من أسرار الاتّحاد في الطبائع مثل ما نفهم أو أكثر مما نفهم، أفلا نرى أنه يعلم أن الجمع بينه وبين ثور آخر قائم قبل كل شيء على تقارب الطبيعة وتشاكل المزاج، وإذا تباعدت الطبائع والأمزجة والأخلاق والأفهام كان التقارب بينها واهياً، فأصل الأمر في هذا كله إنما هو الانسجام على نحو ما قلنا.

أفلا نرى أن الحمار يفهم من القناعة أكثر ممّا نفهم، أفلا نرى أن المرض يصيبنا في كثير من الأحيان من الإفراط في الأكل والشرب، وأن التعب يصيبنا من المغالاة في التفكير في الغنى والجاه وما شابهما.

لقد تقدمت البشرية في كلّ شيء، وحسبها أنها أخذت تكشف عن أسرار الكواكب في السماء، وتغزو هذه الكواكب، ولكنّا في كثير من آفاق الحياة لا نزال نغبط الثيران على عقولها والحمير على أفهامها.

الوطن في معجمات اللغة

روى بودلير أنه لما كان شاباً مغمور الصيت أحب أن يقابل تيوفيل غوتيه فاستقبله غوتيه وسأله هذا السؤال: هل تقرأ معجمات اللغة، فقال بودلير: إني أقرأها وأبتهج بقراءتها، وقد كان غوتيه يرى أنه لا يليق بالشاعر أو بالكاتب أن لا تسره قراءة مفردات اللغة وتفاسيرها، وقد كان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً، ويعرف طائفة منها غير يسيرة.

أُولعت بالكلمات على نحو غوتيه فأنا أحبها حباً جماً، فقد تعودت أن أطالع معجم اللغة كل ما أمكنتني مناهز الفرص، وما كنت أتصفح هذا المعجم لأملأ ذهني بمفرداته، وإنما كنت أرى فيه شيئاً لا تحضرني عبارة للإفصاح عنه إن لهذه المخلوقات الصغيرة سراً من الأسرار لا تدركه العقول فهي ناطقة شاعرة، فيها حياة ولها حركة وحس، إنها تدلك على أشياء كثيرة فهي تبين لك أخلاق الذين أنشأوها وتصور لك مبالغ عواطفهم ومقادير حضارتهم ومراتب قومهم في العلوم والفنون وفي الصناعات والتجارات، والزراعات وفي مرافق الحياة بمجامعها فإذا شئت أن تعرف مثلاً مقدار رقة العرب أو خشونتهم ولطف حسهم وغلظته

أو إذا شئت أن تعرف شيئاً من عاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم فتصفح معجماً من معجمات لغتهم، إن هذه الألفاظ الذي تجدها فيه إنما هي مرآة ينعكس فيها ما أنت راغب في معرفته، فاجمع إذا شئت الألفاظ الدالة على صفات المرأة في كلام العرب أي في معجمات لغتهم، فإنك تدرك يومئذ مبلغ إحاطة العرب بمحاسن المرأة ومقابحها وخذ لك مثلاً غير هذا المثل فإنك تخلص إلى نتيجة واحدة، إن هذا الملك المترامي الأطراف الذي بسط العرب ظلالهم عليه لا يدلك عليه مثل معجم لغوي، تدرك فيه ظواهرهم وبواطنهم من الألفاظ التي أبدعوها فأفصحت عن عواطفهم وأخلاقهم .

إنك لا تكاد تعرف مقدار اللذة التي تنشأ في نفسك من قراءة لفظة تدلك على أفكار آبائك وأجدادك الأولين، وعلى عاطفة كانت من عواطفهم، إنك لا تكاد لا تعرف السرور الذي يدخل على قلبك من مشاركتك لهؤلاء الآباء والأجداد في فرحهم وحزنهم، وفي سرورهم وألمهم، وكيف لا تشاركهم في هذا الفرح والحزن، وفي هذا السرور والألم إذا كنت تستعمل الألفاظ التي استعملوها فتصور بها فكراً كان فكر آبائك من قبل، وماتوا وعاشت من بعدهم، ولست أجد شيئاً يصل حاضرك بماضيك مثل معرفة هذه الساحرة التي يشتمل عليها معجم من المعجمات.

يقول أناتول فرانس في رواية من رواياته: معرفة اللغة واجب وطني على كل رجل إفرنسي، لقد صدق أناتول في كلامه، وأي

واجب وطني أعظم من الاتصال برهطك الأولين الذين تستضيء بضيائهم، أم أي واجب وطني أجل من الاحتفاظ برسومهم وآثارهم. هب الليالي ذهبت ـ معاذ الله ـ بهذا الكنز الثمين الذي أورثنا إياه آباؤنا الأولون، هب الليالي درجت بهذه اللغة الكريمة ولم تبق منها لفظاً من الألفاظ، أين يكون وطنك بعد هذا كله وماذا يكون حاضرك وآتيك.

خذ أية لفظة شئت وتصور ما تدلك عليه هذه اللفظة، تصور ما توحيه إلى ذهنك من المعاني السامية، خذ لفظ بردى مثلاً، يقول لك الفيروز أبادي في كتابه (بردى نهر دمشق الأعظم مخرجه الزبداني)، هذا صحيح. ولكنك إذا كنت من دمشق الشام ووقع نظرك على كلمة بردى خطرت ببالك أمور تعالت أن يحيط بها شيء من الكلام، إنك لا تتصور بردى فقط ولا تتصور هذا الوادي الهادئ الذي يقيك لفحة الرمضاء، ولا هذا الدوح المنبسط على عدوتيه، الحاني عليك ولا حنو المرضعات على الفطيم، ولا هذا الزلال الذي يرشفك إياه على ظمأ وهو ألذ من المدامة للنديم، ولكنك تتصور رهطك الأولين الذين اتسعت أفياؤهم على ضفتيه، ويذهب خاطرك إلى عظمتهم وعزهم، فتتصور جماعتك الذين شربوا من بردى فلم يبق من سلطانهم وعزهم إلا خاطرة أليمة تهيجك وتثيرك في صباحك ومسائك، وتظل تؤلمك وتوجعك حتى تدرك العظمة التي كانت لجماعتك من قبل، وتصل إلى هذا العز الذي تقلبوا فيه، وإنما الأمم ذكريات مديدة، هذا هو معنى كلام

أناتول فرانس «معرفة اللغة واجب وطني» أي شيء يمكّن في قلبك حب وطنك أكثر من هذه الذكريات، ولا تهيج هذه الذكريات إلا ألفاظ مبعثرة في معجم من معجمات اللغة، راجع كثيراً من الألفاظ التي. كانت في زمن بني أمية أو بني العباس أو في زمن صلاح الدين مثلاً، راجع هذه الألفاظ الدالة على أمور كثيرة لا تجدها في عصرك هذا واعرضها على خاطرك حتى تعرف كيف تحيي أحرف قليلة ذكرى أحقاب مديدة.

ما أقوى هذه المخلوقات الصغيرة، ما أصبرها على شدائد الأيام. وأنت إذا تأملت في اللغات التي تعاقبت على الشام ونظرت في الذي انقرض منها علمت بما للكلمات من قوة وسلطان. فقد استفاضت في الشام قبل الاسلام لغات كثيرة ولم تبق منيعة الجانب غير لغة العرب، فأين البابليون ولغتهم؟ وأين الكنعانيون ولسانهم؟ وأين الكلدانيون وبيانهم. ذهبت اللغات الحثية والأرية وذهبت السريانية فلم يبق في الشام إلا بيان قريش وحده. وما استطاعت أمة من الأمم في قديم الدهر وفي حديثه أن تطفئ من نور هذا البيان.

ما أعظم هذه المخلوقات الصغيرة. إنها روح الوطن وعبقريته!

القبس

سياسة العرب للناس

لقد كنت في أثناء بعض مطالعاتي لكتب التاريخ أو لكتب الأدب أدون أموراً صغيرة وأمعن في النظر فيها، وقد يظن الإنسان لأول وهلة أنها لا شأن لها، ولكنها كانت عنوان نجاح سياسة أصحابها.

مرة كانت هذه الأمور تدل على معاملة الناس بحسب طبائعهم وأمزجتهم، جاء في الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف ما يلي: قالت عائشة: دخل أبو بكر على رسول صلى الله عليه وسلم، وهو مضطجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له عائشة: لم تصنع هذا بأحد فقال: إن عثمان شديد الحياء، ولو رآني على تلك الحال لانقبض عن حاجته وقصر فيها.

قد نمر بخبر مثل هذا الخبر، فإما أنا لا نحتفل به، وإما أنا لا نهتدي إلى جلالة قدره في معرفة عبقرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية، وما أظن أن الذين كتبوا في سيرة الرسول أهملوا أشباه هذا الخبر، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابة، فقد كان سيدنا محمدﷺ عالماً بنفوس جماعته

وصحابته، واقفاً على أسرار أخلاقهم، محيطاً بغوامض أمزجتهم، يعلم مايغضب له فلان من الصحابة رضوان الله عليهم، وما يرضى به فلان ويعرف ما يستثير فلاناً، وما يسكن به فلان، فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة له؛ اللائقة به، حتى أُشربت القلوب محبته، وانطوت على طاعته، فلم ينفض أحد من حوله، وهذا منتهى الحذق في سياسة الناس، وليس يعلم ما لهذه الأمور النفسية من الشأن في سياسة الخلق إلا الذين كتب لهم أن يمارسوا هذه السياسة ويعالجوها.

ومرة تدل هذه الأخبار الصغيرة على تجاهل رجال السياسة وانخداعهم بحسب مقتضى الحال، فقد جاء في الأغاني في كلام صاحبه عن عبد الله بن الزبير الشاعر الكوفي ما يلي:

لما هرب ابن الزبير من عبد الرحمن ابن أم الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره، فتظلم منه وقال: أحرق لي داراً قد قامت علي بمائة ألف درهم، فقال معاوية ما أعلم بالكوفة داراً أنفق عليها هذا القدر، فمن يعرف صحة ما ادعيت؟ قال: هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك. فقال معاوية للمنذر: ما عندك في هذا؟ قال: إني لم آبه لنفقته على داره ومبلغها، ولكني لما دخلت الكوفة وأردت الخروج منها أعطاني عشرين ألف درهم وسألني أن ابتاع له بها ساجاً من البصرة، ففعلت. فقال معاوية: إن داراً اشترى لها ساجاً بعشرين ألف درهم لحقيق أن يكون سائر نفقتها

مائة ألف درهم، وأمر له بها فلما خرج، أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم: أي الشيخين عندكم أكذب، والله إني لأعرف داره، وما هي إلا خصائص قصب، ولكنهم يقولون فنسمع، ويخادعونا فننخدع، فجعلوا يعجبون منه!

ليس في كذب هذين الشيخين: الشاعر عبد الله بن الزبير والمنذر بن الجارود شيء من العجب، ولا في فطنة معاوية إلى هذه الكذبة شيء من البراعة، ولكن البراعة كل البراعة في استعداد معاوية لسماع الكذب وهو عالم به، وفي انخداعه وهو شاعر بالخديعة، حتى ظن الشيخان حذقهما، وإنهما غشاه، وهذا أسلوب من أساليب معاوية في سياسة الناس يعلم بالكذبة فينزلها منزلة الصدق ويعلم بالخديعة فيحلها محل النصح، ولو لم يفعل هذا واشباهه لما وجد مدخلاً على قلوب الناس وتمكناً في هذه القلوب، وليس في كل وقت يجوز لخليفة مثل معاوية تكذيب اللاجئين إليه؛ فقد يضطر في بعض الأحوال إلى النزول إلى مراتب تفكيرهم وحيلهم ومداخلهم ومخارجهم حتى يتم أنسهم به، ويكمل اطمئنانهم إليه، ولولا هذا النزول لاشتدت الوحشة منه، وهذا مذهب لا يحذقه إلا معاوية أو مثل معاوية، ولكن من هو مثل معاوية في سياسة الناس؟

وحيناً كانت هذه الأخبار الصغيرة تفصح عن مخاطبة الناس على قدر منازلهم حتى لا يشتطوا في هذه المنازل، قال الجاحظ نزل

رجل من اهل العسكر، فغدا بين يدي المأمون وشكا إليه مظلمته، فأشار بيده أن: حسبك! فقال له بعض ما كان يقرب من المأمون: يقول لك أمير المؤمنين اركب، فقال المأمون: لا يقال لمثل هذا اركب، إنما يقال له: انصرف!

هذا الخبر الذي أحببت أن أختم به المقال غاية في الدلالة على معرفة الناس ولا يخطرن ببال أحد أن في هذا النحو من كلام المأمون شيئاً من العنجهية، فمن الناس من لا ينقاد إلا بالشدة، ومنهم من لا يطيع إلا باللين، وإذا استعمل رجال السياسة اللين مع الفريق الأول أفسدوا سلطانهم وهدموا بنيانهم، حتى تطمع العامة في الاستطالة عليهم والمشاركة لهم في جلائل أعمالهم، وإذا استعملوا الشدة مع الفريق الثاني نقروا القلوب وأوحشوا النفوس، فلا يجدون من حولهم جماعة يجتمع به شملهم ويشتد بهم سلطانهم، وقد فطن أبو الطيب المتنبي إلى هذا المعنى فقذف ببيتيه الخالدين: ووضع الندي في موضع السيف.. فإن إكرام المأمون لمن لا يقدر هذا الإكرام حق قدره، قد يحمل على التمرد، ولقد شاهدنا هذه الأمور بأعيننا، ورأينا عواقب الذين استعانوا في سياستهم بالأوباش وأعطوهم في معاملتهم أكثر من حقوقهم. فلرجل السياسة طراز في مخاطبة الخاصة، وطراز في مخاطبة العامة، واستعمال واحد منهما في مقام الآخر مفسدة لكل سياسة، مضيعة لكل سلطان.

لم يضبط رجال العرب ما ضبطوه من الأعمال ولم يذللوا ما

ذللوه من المصاعب إلا لمعرفتهم بهذه الأمور ونظائرها، حتى كتب لكثير من الخلفاء وعمال بني أمية وبني العباس نصيب من السياسة الراشدة في اطفاء جمرة الثورات أو في تأليف القلوب أو في التزهيد والترغيب، لقد أصبح علم النفس في عصرنا هذا قادراً على حل أشد العضل إشكالاً، ولهذا يلجأ إليه في كل يوم رجال الدول ورجال الحروب ورجال الاقتصاد!

ذهبنا إلى مؤتمر الأونسكو في بيروت
لنتعلم كيف نخطب، وكيف ندرس، وكيف نناقش

هذه كلمة دخلت في السنين الأخيرة في معجمنا وأصبحت في شهرنا هذا على الألسن، وزاد في انتشارها في العالم بأجمعه مؤتمر بيروت.

الكلمة منحوتة من جملة كلمات، فهي منحوتة من الكلمات الآتية: مؤسسة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، فقد أخذوا من حروف هذه الكلمات كلها الحرف الأول وصاغوا منه كلمة أونسكو، فالكلمة في ذاتها لا معنى لها وإنما معناها يأتي من الجملة التي ذكرتها.

وقد يصعب عليَّ في مقال وجيز أن أتكلم على الأونسكو، وإن اشبع هذا الكلام. ولكني لا أرى بداً من الإشارة إلى قليل من غايات الأونسكو ومراميه.

ذكر مدير الأونسكو العام الدكتور «هكسلي» في تقريره الذي رفعه إلى مؤتمر بيروت أن برنامج الأونسكو يرمي إلى أمور كثيرة، من جملتها غرس الأسس التي يحتاج إليها عالم أكثر وحدة من عالمنا

واشد هدوءاً، ولا تزال هذه الأسس في وقتنا هذا غير كاملة، فالأونسكو يبحث عن مورد عام من المعلومات تستطيع الأمم بحذافيرها أن ترده لحل مشاكلها في أبواب التربية والعلم والثقافة، وعن مجهود أشد تنسيقاً تبذله في آفاق العلوم الطبيعية والاجتماعية وعلم الإنسان حتى تستطيع البشرية أن تحل مشاكلها بالجملة، وعن ايقاظ الشعور بميراث البشرية الخصيب في الثقافة والفنون، وعن تمكن هذه البشرية من أن يعيش أفرادها وجماعاتها عيشة أكمل، وعن تعمق كل أمة في فهم الأمم الأخرى، وفهم ثقافتها في أتم وأحسن انسجاماً وعن تزييد تعاون الدول في كل النواحي التي يمتد إليها سلطان الأونسكو.

فالأونسكو يجب عليه أن يصرف جزءاً من نشاطه إلى إنشاء الأدوات التي يفتقر إليها خلق عالم هادئ على الرغم من علمنا بأن هذه الأدوات لا تضمن لنا في ذاتها السلم في الدنيا، وعلى الرغم من علمنا بأنها قد تكون في بعض الأحوال حرباً على السلم نفسه.

من هذا كله يستطيع أن يدرك القارئ مدى آفاق الأونسكو ولئن لم ينصرف نشاط الأونسكو إلى تأييد السلم في العالم فإن هذا النشاط قد ينفع السلم الذي لا يمكن أن يكون خالداً إلا إذا بني علي تحسين حالة البشر في عيشهم.

بعد هذا المقطع من الكلام أريد أن أنقل إلى قراء «الأيام» شيئاً من شعوري الخاص الذي شعرت به وأنا في مؤتمر بيروت.

هذه أول مرة نشهد فيها في بلادنا مؤتمراً تجتمع فيه وفود أمم الأرض كلها.

لقد تهيأ لنا أن نعرف شيئاً يسيراً عن طائفة من خصائص هذه الأمم من سماعنا لخطب وفودها، كما تهيأ لنا أن نعرف شيئاً يسيراً عن المؤتمرات العالمية.

يخطئ من يظن أن مهمة وفدنا السوري مقتصرة على الكلام وحده في مؤتمر الأونسكو في بيروت، فإن مهمتنا الدرس والمشاهدة والمقارنة وغير ذلك من الأمور، وإذا كان الكلام يحسن في حال من الأحوال فإن السكوت يحسن في حال ثانية. ومن الخطأ أن ينبري أحد للكلام في مؤتمر من طراز مؤتمر بيروت لمجرد الكلام وحده، فإن هذا النوع من الكلام يسيء إلى سوريا أكثر مما يحسن إليها، فقد تعلمنا أن الكلام في مؤتمر اجتمعت فيه الدنيا كلها إذا لم يكن مبنياً على ما نسميه (النص) كان نوعاً من المجازفة، وإذا اقتضت بعض حالات وطنية أو قومية أن نقذف بكلام صدوره عن العاطفة أكثر من صدوره عن المنطق فلا ينبغي لنا أن نكثر من هذا النوع من الكلام.

هذه فائدة غير قليلة، فإن سوريا بفضل استقلالها ستضطر في المستقبل إلى ايفاد من يمثلها في مؤتمرات كثيرة، فإذا لم نعمل بهذا الدرس في المؤتمرات الآتية فإننا لا نحسن إلى سوريا ولكننا نسيء إليها.

وكما تعلمنا طبيعة الكلام الذي يجب علينا أن نستعمله في المؤتمرات فقد تعلمنا أن الوفد الذي سيمثل سوريا في مؤتمرات آتية إذا لم يدرس الأوراق المتعلقة بهذه المؤتمرات قبل ذهابه إليها كان عمله ناقصاً. فقد فاجأنا مؤتمر الأونسكو في بيروت مفاجأة، ومع هذا فقد تحفظنا فيه إذ أنه لما خصص رئيس المؤتمر أياماً لدراسة تقرير المدير العام ظننا أن الوفود ستتكلم على هذا التقرير. وكم كان عجبنا شديداً لما سمعنا الوفود في اليوم الأول يُعرفون المؤتمر ببلادهم وينحرفون عن الكلام على التقرير، ونحمد الله على أن الفرصة مكنتنا من أن نهنيء خطبة وجيزة نوضح فيها لأمم الأرض بعض حالاتنا العلمية، وقد كلفنا أحد رجال وفدنا الدكتور جميل صليبا أن يلقي هذه الخطبة وكانت رصينة وجيزة، وبفضلها استطعنا أن نقحم سوريا في جنب أمم مثل أميركة وغيرها، ولم يغفل معالي وزير المعارف الدكتور منير بك العجلاني عن ارتجال كلمة فرنسية في منع اليهود عن دخول «الأونسكو» كانت قوية هادئة في وقت واحد.

والخلاصة: أن هذا المؤتمر كان رياضة لنا وتمريناً فقد روضنا على معرفة المؤتمرات وما يجري فيها، ومن واجب الحكومات في سورية إذا شاءت الاشتراك في مؤتمرات من هذا الشكل أن تدرب رجالها عليها حتى لا تكون أعمالنا فيها ارتجالاً وليس من الغضاضة أن نقول.

ذهبنا إلى مؤتمر الأونسكو في بيروت لنتعلم كيف نتعلم، وكيف نخطب، وكيف ندرس، وكيف نناقش، واعتراف الأمم بنقصها دليل على نوع من الفضيلة ومقدمة لكمالها في المستقبل.

دمع الفرح

قد تضيق اللغة في بعض الأوقات فلا يهتدي فيها المرء إلى لفظ يعبر عن فكر من الأفكار، فيظل هذا الفكر مضمراً في الفؤاد، ومن الأفكار التي لا أجد لها لفظاً يفصح عنها فكرة الجلاء.

إننا نستطيع أن نشعر بمحاسن هذا العيد الذي نعيده اليوم وهو عيد الجلاء، ولكننا لا نستطيع تصوير هذه المحاسن وقد تظهر محاسن الجلاء لأول وهلة بسيطة لا يرى فيها العقل أمراً غامضاً، ولكن مثلها في الحقيقة كمثل هذا الشعاع الذي يمتد إليَّ وأنا أكتب هذه الكلمات، فالشعاع أبيض صاف، ولكنك إذا حللت أجزاءه رأيت ألوانه المختلفة، وقد تناسقت هذه الألوان تناسقاً غريباً بحيث خفيت كلها ولم يظهر للعين منها إلا بياضها الصافي الناصع، وكذلك الجلاء فإنا نعتقد أمره بسيطاً، ولكنا إذا رجعنا إلى المقدمات التي أفضت إلى نتائجه وجدنا أن هذه المقدمات متنوعة، فقد يغيب عنا تنوعها واختلافها بحيث لا نرى في النتيجة إلا أمراً واحداً لم يخطر ببال أحد وهو أمر الجلاء.

لنجمع أذهاننا ونحشد عقولنا، ولنذكر تلك السنين التي مرت على البلاد من شهر تموز ١٩٢٠ إلى يوم خروج الفرنسيين من

ديار الشام، فإن الذين كُتب لهم أن يروا بأعينهم دخول الفرنسيين دمشق الشام وخروجهم منها، هم الذين يستطيعون أن يشعروا أكثر من كل واحد بهذه النعمة التي أنعمها الله على البلاد.

لقد كنا قبل دخول الفرنسيين بيومين نجلس في مقهى في شارع النصر وننظر إلى الباب والكهول الزاحفون إلى ميسلون وكان البشر يتدفق على وجوهنا؛ ثم جلسنا في المقهى نفسه وقد دخل الفرنسيون دمشق الشام ومرت جيوشهم في شارع النصر تعرض على الناس قوتها وجبروتها، فكم كان الفرق عظيماً بين المشهدين، وكم كان الألم كبيراً، كانت الوجوه قبل يومين تضحك، والعيون تبرق والقلوب تهش، فانقلب الضحك عبوساً والبريق ظلمة، والهشاشة انقباضاً، كل ذلك في يومين.

وقد استمر العبوس والظلمة والانقباض في قلوب الذين يعرفون معنى الوطن وقيمته خمساً وعشرين سنة ما كانت الديار تشاهد في خلالها إلا فساداً في الضمائر والتواء في الأخلاق وضغطاً للأفكار وقتلاً للحريات، ولكن أمة مثل أمتنا أورثها الله أدباً قليل النظير ولغة منقطعة القرين وحضارة لا يستنكر من معالمها شيء يصعب على الفاتحين أن يغلبوها على أمرها ويشاركوها في سلطانها ويستبدوا بأمور دولتها، وقد تمتد غلبتهم حيناً من الأحيان ويطول استبدادهم زمناً من الأزمان ولكن الأمور صائرة إلى عواقبها، فقد استطاعت هذه الأمة الصابرة الجزعة، الهادئة الثائرة، الطائعة

العاصيـة، أن تخـرج مـن مظـاهرة إلى مظـاهرة ومـن احتجـاج إلى احتجـاج، ومـن فتنـة إلى فتنـة ومـن ثـورة ،إلى ثـورة حتـى اسـتطاعت بهـذه المظـاهر كلهـا أن تفصـح عـن غضبهـا علـى احتـلال البـلاد وعـن سـلب حقوقهـا إلى أن جـاء اليـوم الـذي كتـب لهـا فيـه الخـلاص ممـا عانتـه وكابدتـه في غضـون خمس وعشـرين سـنة.

وإذا سئلت عـن رأيي في أعظـم مشـهد شـهدته هـذه البـلاد في أثنـاء ربع قـرن فإني لا أجـد أعظـم مـن مشـهد واحـد، وهـو رؤيـة الفرنسـيين وهـم يدخلـون البـلاد ورؤيتهـم وهـم يخرجـون منهـا، هـذا هـو الأمـر الوحيـد الـذي لم أجـد في الـذي أحفظـه مـن مفـردات اللغـة ألفاظـاً أصـور بهـا هذيـن المشـهدين اللذيـن لا نظـير لهمـا: مشـهد والحـزن يغلـب فيـه علـى كـل ناحيـة مـن نواحـي النفـس، ومشـهد والفـرح يبلـغ فيه كل مبلـغ مـن هـذه النفس.

قـد نجـد في قصـائد الشـعراء تعابـير يسـتعصي علينـا فهمهـا في بـدء الأمـر مثـل هـذه التعابير: دمـع الحـزن ودمـع الفـرح، ولكنـا بعـد اليـوم لا يشـكل علينـا شيء مـن فهـم هـذه التعابـير، للحـزن دمـع وهـو الـذي سـكبناه لمـا دخـل الفرنسـيون بلادنـا علـى الرغـم منـا، وللفـرح دمـع وهـو الـذي سـكبته قلوبنـا قبـل عيوننـا لمـا خـرج الفرنسـيون مـن بلادنـا علـى الرغـم منهـم.

هـذه الدمـوع أعظـم دمـوع انحـدرت علـى خدودنـا في خـلال ربـع قـرن، وإذا كـان مجـال الكـلام علـى الجـلاء متسعاً فـإني لا أريـد الخـوض

فيه، وإنما أريد أن أختم هذه الكلمات بكلمة واحدة وهي أن الله تعالى أنعم على البلاد نعمة لم تقع في خلد واحد منا قبل اليوم وهي نعمة الاستقلال، فإذا كتب الله لنا أن يغلب دمع الفرح في قلوبنا وعيوننا على دمع الحزن فمن الواجب أن نحافظ على هذا الفرح ومهما ننفق في سبيله من مال، أو نبذر في وجوهه فإنه أعظم من كل مال وفوق كل تبذير!